لوز وسكّر

تأليف: سحر نجا محفوظ

رسم: تيريزا عبود

يَعيشُ سَلْمانُ في قَرْيَتِهِ «لوز وسكّر» المُطِلَّةِ على وادٍ تَمْلَأُهُ الأَشْجارُ الخَضْراءُ.

يَذْهَبُ إلى مَدْرَسَتِهِ المُتَواضِعَةِ، ثُمّ يُساعِدُ والِدَهُ في المَزْرَعَةِ، فَيُطْعِمُ الخِرافَ وَيَحْلُبُ الأَبْقارَ، وقد تَعَلَّمَ أَيْضاً قَطْفَ المَحاصيلِ من تُفّاحٍ وَبُرْتُقالٍ.

والِدَتُهُ وَأُخْتُهُ تَهْتَمّانِ بِالتَّطْريزِ على الوسائِدِ وخِياطَةِ المَفارِشِ، فَأُمُّهُ هي الأَفْضَلُ في هذِهِ الحِرْفَةِ الّتي تُعَلِّمُ الصَّبْرَ والدِّقَّةَ. وَقَبْلَ بِدايَةِ كُلِّ مَوْسِمٍ زِراعِيٍّ، تَتَساعَدُ العائِلَةُ في تَنْظيفِ البُسْتانِ تَحْضيراً لِزَرْعٍ جَديدٍ يَكونُ مُؤونَتَهُمْ السَّنَوِيَّةَ، ولا يَنْسى سَلْمانُ مُساعَدَةَ «حَجّوم» لَهُمْ، وَهُوَ الثَّوْرُ الكَبيرُ الذي يَقومُ بِالحَرْثِ.

ولِسَلْمانَ عَمٌّ يَعْمَلُ في التِّجارَةِ بالمَدينَةِ الكَبيرَةِ، وقد أَهْداهُمْ يَوْماً جَرّاراً لِمُساعَدَتِهِمْ في الزِّراعَةِ، ولكنَّ والِدَهُ لمْ يُحِبّ اسْتِخْدامَهُ وأَبْقاهُ في المَخْزَنِ.

دعاهُ عَمُّهُ لِزِيارَتِهِ في المَدينَةِ، فَتَحَمَّسَ لِلْفِكْرَةِ وخافَ مِنْها في نَفْسِ الوَقْتِ. حياتُهُ البَسيطَةُ والمَليئَةُ بالعَمَلِ والجُهْدِ لم تَسْمَحْ لَهُ بِالسُّؤالِ عنِ المدينَةِ وطِباعِ النّاسِ فيها.

في القَرْيَةِ يَعْرفونَ بَعْضَهُمْ مُنْذُ الصِّغَرِ وَيَفْرحون لِفَرَحِ الآخَرينَ ويَحْزَنونَ لِحُزْنِهِمْ، إنَّهُمْ يَتَنَفَّسونَ أَنْقى الهواءِ ويَأْكُلونَ مِمّا يَزْرَعونَ.

ولَكِنَّهُ قَرَّرَ قُبولَ الدَّعْوَةِ بَعْدَ مُوافَقَةِ والِدَيْهِ، وذَهَبَ بِسَيّارَةِ عَمِّه إلى المَدينَةِ السّاحِلِيَّةِ.

انْدَهَشَ عِنْدَ وُصولِهِ مِنَ الأَبْنِيَةِ الشّاهِقَةِ والطُّرُقاتِ العَريضَةِ. ولم يَفْهَمْ سَبَبَ كُلِّ تِلكَ الجُسورِ والأَنْفاقِ إلّا بَعْدَما أَخْبَرَهُ عَمُّه أنّها لِتَسْهيلِ حَرَكَةِ المُرورِ وَعَدَمِ إِضاعَةِ الوَقْتِ.

ولكِنْ أَخافَتْهُ كَمِّيَّةُ السَّياراتِ الواقِفَةِ في طَابورٍ طَويلٍ وَعَوادِمُها تَبْعَثُ تِلْكَ الرّائِحَةَ الكَريهَةَ.

لم تَتَوَقَّفْ أَسْئِلَتُهُ عن السّوبِرْمارْكِتْ الكَبيرِ والدَّرّاجاتِ النّارِيَّةِ والمَصانِعِ المُتَناثِرَةِ على أَطْرافِ المَدينَةِ، «كَيْفَ يَزْرَعونَ إذاً دونَ وُجودِ بَساتينَ لَدَيْهِمْ؟» سَأَلَ بانْدِهاشٍ.

أَخْبَرَهُ عَمُّه أَنَّ إيقاع الحَياةِ في المَدينَةِ سَريعَةٌ جِدّاً، وعلى الجَميعِ الجَرْيُ لِلِّحاقِ بِها، وَلِذَلِكَ لا وَقْتَ لِلتّفْكيرِ بالزِّراعَةِ لِأَنَّ المِساحاتِ الخَضْراءَ المُتَبَقِّيَةَ في المَدينَةِ يَسْتَخْدِمُها النّاسُ كَحَديقَةٍ عامَّةٍ يَلْعَبُ بِها الأَطْفالُ.

«ولكنّ الغابَةَ بِأَكْمَلِها لنا لِنَلْعَبَ فيها في القَرْيَةِ» قالَ سَلْمَانُ بِصَوْتٍ خافِتٍ.

اسْتَطاعَ الصُّمودَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ عِنْدَ عَمِّهِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ عَوْدَتَهُ إلى قَرْيَتِهِ الرّائِعَةِ بِأَلْوانِ وُرودِها وَشَجَرِها، بِبُيوتِها المَبْنِيَّةِ مِنَ الأَحْجارِ والصُّخورِ، بِغابَتِها الشّاسِعَةِ وَبَساتِينِها.

ولَكِنْ قَبْلَ ذَهابِهِ سَأَلَ عَمَّهُ السُّؤالَ الأَخيرَ الذي أَبْقاهُ قَلِقاً وصامِتاً طَوالَ مُدَّةِ رِحْلَةِ العَوْدَةِ «ألا تَحِنُّ يا عَمّي إلى هَواءِ الضَّيْعَةِ وَفاكِهَتِها، إلى الحَليبِ الطّازَجِ مِنْ أَبْقارِها، إلى الزَّيْتِ والسَّعْتَرِ مِنْ بُيوتِها؟ أَلَمْ تَمِلَّ مِنْ حَياةِ السُّرْعَةِ هذِهِ؟»